العنوان:	وجهة نظر حول ابن حزم و مدى تأثر الفكر الاندلسي بالحركة العلمية في المشرق
المصدر:	مجلة دار الحديث الحسنية
الناشر:	وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية - مؤسسة دار الحديث الحسنية
المؤلف الرئيسي:	محجوبي، محمد
المجلد/العدد:	ع 11
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1993
الصفحات:	273 - 285
رقم MD:	106864
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	النشاط العلمي، ابن حزم ، علي بن احمد ، ت 456 هـ ، الفكر الاندلسي ، الحركة العلمية ، العالم العربي ، التاريخ الاسلامي، الفكر الاسلامي، الاندلس، الحضارة الاسلامية ، الحضارة العربية ، المشرق العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/106864

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

محجوبي، محمد. (1993). وجهة نظر حول ابن حزم و مدى تأثر الفكر الاندلسي بالحركة العلمية في المشرق.مجلة دار الحديث الحسنية، ع 11 ، 273 - 285. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/106864

إسلوب MLA

محجوبي، محمد. "وجهة نظر حول ابن حزم و مدى تأثر الفكر الاندلسي بالحركة العلمية في المشرق."مجلة دار الحديث الحسنيةع 11 (1993): 273 - 285. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/106864

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

وجهة نظر

حول ابن حزم
ومدى تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق *

للأستاذ محمد مجوبي

مولد ابن حزم ونسبه.

هو الامام الوزير، العالم ابن الوزير : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي [1] القرطبي اللبلي، الفقيه الحافظ الظاهري صاحب التصانيف [2]، ولد كما كتب بخط يده بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض، قبل طلوع الشمس وبعد سلام الامام من صلاة الصبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم سنة 384 هجرية [3] الموافق سابع نونبر من سنة 994 ميلادية [4].

هذا عن مولد ابن حزم، أما عن نسبه : فقد ثار حوله جدل بين الكتاب القدامى الذين ذهب أغلبهم إلى القول بنسبه الفارسي [5].

---

* أشرف على هذا البحث الأستاذ السعيد بوركبة

(1) المغرب في حلي المغرب : لابن سعيد، حققه وعلق عليه : الدكتور شوقي ضيف الطبعة الثالثة ص 335 الجزء الأول فقرة 253، دار المعارف.

(2) لسان الميزان : للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852 هـ ج 4 حرف العين، ص 198 فقرة 531 : منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان طبعة بدون تاريخ

(3) معجم فقه ابن حزم الظاهري : 12/1، دار الفكر طبعة بدون تاريخ أما عن وفاة ابن حزم فقد تمت «بأونبة»، قرية في غرب الأندلس على خليج المحيط كما كتب ابنه الفضل بخط يده : عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة 456 هـ فكان عمره رحمه الله : احدى وسبعين سنة وعشرة اشهر وتسعة وعشرين يوما. نفس المرجع ونفس الصفحة.

(4) دائرة المعارف الاسلامية العدد 1، المجلد 1، ص 136 جمادى الثانية 1352 هـ ـــ اكتوبر 1933م.

(5) انظر على سبيل المثال : الصلة 2 /415 لابن بشكوال، ط 1966 القاهرة ـــ والبداية النهاية لابن كثير 12 /91 ط 1966 بيروت ـــ ووفيات الاعيان لابن خلكان 2 /425، ط بدون تاريخ نشر الدكتور احسان عباس ـــ ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 12 /225 و 234 ط 1937 القاهرة ـــ وشذرات الذهب 3 /299. لابن العماد، ط بدون تاريخ.

وعلى هذا الرأي يوافق عدد من الكتاب المعاصرين أيضا، من بينهم : المرحوم الامام محمد أبو زهرة، الذي كتب تحت عنوان : «جنسية ابن حزم» ما يلي [6] : «علا ابن حزم بعلمه ولم يعل بنسبه... وقد ذكر أنه ينتمي لأسرة فارسية، وذلك أن جده «يزيد» كان فارسيا، وكان مولى ليزيد بن أبي سفيان أخي معاوية الذي ولاه أبو بكر امرة الجيش الأول الذي ذهب لفتح الشام.

وعلى ذلك فهو قرشي بالولاء، فارسي بالجنس، وأنه لذلك الولاء كان يتعصب لبني أمية يعادي من عاداهم، ويوالي من والاهم...

وقد رحل جده لأعلى مع البيت الأموي إلى الأندلس.... وقد نزلت أسرته في قرية «منت ليشم» من اقليم الزاوية من عمل أونبة التي هي من كورة لبلة من غرب الأندلس، وأول من وفد إلى الأندلس جده الأعلى خلف، وقد كان لهم شأن من يوم أن نزلوا، حتى لقد قال الفتح بن خاقان «بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب، فلهم رفعة العلم ورفعة الجاه والمجد» [7].

هذا ما يقرره أغلب المؤرخين، ولكن يخالفهم أبر مروان ابن حيان [8] فيروي عنه ياقوت في معجمه ما نصه : «كان من غرائبه انتماؤه لفارس واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر... فقد عهده الناس خامل الابوة مولد الأرومة من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالاسلام، ولم يتقدم لسلفه نباهة، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي... حتى تخطى على هذا رابية لبلة، فارتقى قلعة اصطخر من أرض فارس فالله أعلم كيف ترقاها، اذ لم يكن يؤتى من خطل ولا وجاهة، بل وصله بها واسع علم ووشيجة رحم معقوفة، بلها بمستأخر الصلة رحمه الله [9]»، كما أن المقري قد أثبت بدوره النسب الفارسي لابن حزم [10].

(6) ابن حزم : للامام محمد أبو زهرة ص 24 وما بعدها، ملتزم الطبع والنشر : دار الفكر العربي 1977.

(7) نقلا عن : معجم الأدباء لياقوت 12 /137، طبع الرفاعي.

(8) ويقول الدكتور طاهر أحمد مكي في كتابه عن «ابن حزم» ما يلي : و«أعظم مؤرخي هذا العصر على الاطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ويلقب بابن حيان (ت سنة 469 هـ ــ 1076م) ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤلفا وأحدها يسمى «المتين» في ستين مجلدا، ولسوء الحظ لم يصلنا عن مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه : «المقتبس في تاريخ رجال الأندلس». انظر كتابه : «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» ص 69 ــ 70، دار المعارف ط الثالثة : ذو الحجة 1401 هـ، اكتوبر 1981م، القاهرة.

(9) معجم الأدباء، 12 /350.

(10) نقلا عن نفح الطيب للمقري 6 /203.

وهو نفس ما قرره الذهبي في تاريخه، إذ قال : (نقلا عن صاعد معاصر ابن حزم) : «هو العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي مولاهم، الفارسي الأصل الاندلسي القرطبي » (11).

فهناك رأي ثان اذن اعتبر أن ابن حزم ليس فارسيا، وإنما هو من أصل عجمي، تزعم هذا الرأي عن القدامى معاصر ابن حزم : ابن حيان، كما قال به أيضا ابن سعيد (12)، ويقصدون من وراء ذلك أنه نصراني الأصل، من أجداد اسبانيين اعتنقوا الاسلام مع من أسلموا من الاسبان أمثالهم بعد فتح الأندلس.

ولا شك أن هذا الرأي الأخير هو الذي أيده الدكتور سالم يفوت ــ إلى جانب من يقول به من المحدثين ــ قائلا « ويوافق على هذا الرأي العديد من الدارسين المعاصرين لابن حزم، شرقيين وغربيين، ومن بين هؤلاء، على الخصوص بعض كبار المستشرقين الاسبان، ونحن حينما نلتقي معهم في التأكيد على اسبانية فقيهنا، فإننا لا نرمي من ذلك، الانسياق وراء النتائج التي يستخرجها بعضهم كالمفكر المعاصر «البرنث» والتي يمكن اجمالها في القول بأن انتساب ابن حزم وغيره من مفكري الأندلس إلى السلالة الإسبانية جعله يرث خصائصها ويظهر عن عبقرية لا نظير لها، لأنها خصلة عريقة، لذا كان «قمة اسبانية» نتيجة الدم الاسباني الذي يجري في عروقه» (13).

ومن خلال رد الدكتور سالم يفوت على المفكر الاسباني «البرنث»، يتضح اعتقاد الأول واضحا، إذ يضيف قائلا (في نفس المرجع ونفس الصفحة) ما يلي : «ان «البرنث» لا يميز بين شيئين أساسيين بالنسبة لابن حزم وغيره من مفكري الغرب الاسلامي، هما : الشعور بالانتساب إلى الغرب الاسلامي والاعتزاز بذلك من جهة، وسريان الدم الغربي (أي الاسباني) في عروقهم من جهة أخرى». وهكذا يقول بثبوت الأمر الأول من خلال تأليف ابن حزم رسالته الشهيرة في «فضل الأندلس وذكر رجالها».

---

(11) نفس المصدر ونفس الصفحة ــ وانظر في ذلك : الامام محمد أبو زهرة في كتابه عن «ابن حزم» ص 25 المرجع السابق.

(12) المغرب في حلي المغرب (في سلسلة : ذخائر العرب رقم 10) 1 /355، نشر وتحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة 1978.

(13) انظر اطروحته لنيل دكتوراه الدولة في الفلسفة بكلية الاداب بالرباط تحت عنوان «ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس» ابتداء من ص 36 إلى غاية ص 40، الطبعة الأولى 1986، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

أما الأمر الثاني : فيرى أنه محل نظر، وخلاصته : أن عبقرية ابن حزم وغيره من الأندلسيين «كابن القوطية» مثلا، إنما ترجع إلى أصولهم الاسبانية ليس إلا، الشيء الذي اعتبره الدكتور سالم يفوت ـــ عن حق ـــ نوعا من القومية العرقية التي ما كان على مفكر كبير أن يقول بها هو وأمثاله، ومن بينهم المستشرق الهولندي «رينهارت دوزي» صاحب كتاب «تاريخ مسلمي اسبانيا» (14).

ويختم الدكتور «يفوت» رده على المفكر «البرنث» وأمثاله قائلا : «لم يكن غرضنا من التأكيد على اسبانية ابن حزم، الاندفاع وراء هاته العرقية، بل كنا نريد فقط أن نحقق نسبه، اعتمادا على شهادات معاصريه، لا سيما ابن حيان وغيره وَرُجوعا إلى سياق أفكار ابن حزم ذاته» (15).

وبعد هذه الاشارات التي كان لابد منها، لا يسعنا إلا تأكيد ما قاله الامام المرحوم محمد أبو زهرة من أن ابن حزم فارسي الأصل، وليس اسبانيا كما قيل، ومؤيده في ذلك ـــ عن صدق ـــ أن هذه الفكرة (أي فارسية ابن حزم) كاد ينعقد عليها الاجماع، وأن ابن حيان مجرد مشكك في ذلك النسب (16)، خلافا لكافة معاصري ابن حزم الذين ناضلهم وكان عنيفا في نضاله معهم ومجادلته اياهم، ولذلك لا نستطيع أن نكذب دعواه لمجرد ما يثيره خصومه من قول قد تكون العداوة هي الدافعة إليه (17)، خاصة وأن ابن حزم «لم يكن في حاجة إلى نسب يزدهي به، وقد ازدهى بخليتين هما : العلم والجاه بين الناس، فلا مطمع له في هذا الباب» (18).

وأخيرا، نسبه الدكتور الطاهر أحمد مكي إلى «العربية الاسبانية» حيث قال : «ومن الواضح أنني حين ادعو ابن احزم عربيا اسبانيا، فإنما أنسبه إلى العربية جادا، وإلى الاسبانية بصورة غير جدية» (19).

ومع ذلك قال في بداية نفس كتابه المشار إليه أعلاه ما يلي : **«أما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لا نرفضها، وكان عالم قرطبة العظيم مسلما طيبا،**

---

(14) المرجع السابق : ص 38.

(15) نفس المرجع ص 40.

(16) خاصة وأن «اسبانية» ابن حيان لا يجادل فيها أحد، لا من القدامى ولا من المحدثين.

(17) ابن حزم : للامام المرحوم أبي زهرة في المرجع السابق، ص 26.

(18) نفس المرجع السابق ص 27.

(19) دراسات عن ابن حزم وكتابه «طوق الحمامة» للدكتور الطاهر احمد مكي، مرجع سابق، ص 211.

والاسلام فوق عصبيات الجنس واللون والدم، وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها اسبانية ففيه شك كبير، لأن لفظة «اسبانيا» لحظة الفتح الاسلامي كانت تعني امتدادا جغرافيا فحسب، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا قومية أو دموية أو فكرية. والقول بهذا ليس من عندي، وإنما هي فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف اميركو كاسترو، وظل يبشر بها طوال حياته (1885 ــ 1973م) ويرى في تجاهل الاسبان لها تضليلا وتحريفا للتاريخ، وانحرافا بسير الثقافة في وطنه، وألف في ذلك كتابا قيما : «حقيقة اسبانيا التاريخية» (20).

فبمقتضى هذه الأقوال اتضح أنها ثلاثة آراء، رأي أول اعتبر ابن حزم فارسي الأصل، ورأي ثان اعتبر أنه اسباني مسلم، وراي ثالث قال بعروبة ابن حزم «بصورة جدية و«باسبانيته» بصورة غير جدية» على حد تعبير الدكتور الطاهر أحمد مكي أعلاه.

وقد سبق لنا تأييد الرأي الأول لوجاهته اعتمادا على مؤيداته، وفضلا عن ذلك فإنه يمكن الرد على من قال «باسبانية» ابن حزم، استنادا إلى «سياق أفكاره ذاته» (21) بما يلي : ان اعتزاز ابن حزم بانتمائه إلى الغرب لاسلامي (وليس «اسبانيا» كما قيل) لم يقصد من ورائه ابن حزم في نظرنا إلا شيئا واحدا : وهو أنه ولد ونشأ في الأندلس وبها تلقى تعليمه، ولم يرحل عنها قط إلى المشرق الاسلامي لتلقي العلم عن عالم المدينة الامام مالك أو غيره، عكس ما فعله كثير من علماء الغرب الاسلامي الذين كبر شأنهم بعد رحلتهم تلك، ومع ذلك تحداهم وجلس لمناظرتهم وكاد أن يتفوق على أشهر هؤلاء، وهو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (22).

(20) د. الطاهر أحمد مكي في مرجعه السابق : 11 ــ 12.

(21) د. سالم يفوت في المرجع السابق : ص 40.

(22) (ت 474 هـ ــ 1081م)، انظر عن ترجمته : «تاريخ قضاة الأندلس» للشيخ أبي الحسن النباهي المالقي الأندلسي : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان (ط بدون تاريخ)، الصفحات : 33 ــ 95 ــ 100 ــ 105 ــ 202، وحول مناظرات ابن حزم والباجي : راجع كتابا قيما في ذلك تحت عنوان : مناظرات في أصول الشريعة الاسلامية بين ابن حزم والباجي للدكتور عبد المجيد تركي، ترجمه وحققه : الدكتور عبد الصبور شاهين، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1406 هـ ــ 1986م، وأصل هذا الكتاب بالفرنسية، وسبق طبعه بها ضمن سلسلة «دراسات ووثائق» بواسطة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1977 بالجزائر.

والذي يستغرب له : أن ما حدث وقت ابن حزم مازال يحدث في وقتنا الراهن، إذ يكفي أن يأتينا أجنبي (وأقصد به الأوربي أو الأمريكي) أو عربي ــ أيا كان ــ حاصلا على شهادة عليا ــ في أي فرع من فروع المعرفة ــ من جامعة هواشنطن أو لندن أو باريس، ليقوم له القائمون ويقعد له القاعدون ابتداء بغض النظر عما تتضمنه أفكاره (ولو كانت هدامة)، ولا مقدار نصيبه من العلم (ولو كان يسيرا)، وربما هذه هي سنة الحياة منذ عصر ابن حزم إلى عصرنا هذا، ونطلب من الله السلامة والثقة في النفس وفي الأوطان.

وابن حزم عندما أشاد بالغرب الاسلامي، إنما اعتبر ذلك فخرا وتحديا لعصره، لما صرح جهارا بما لم يقدر عليه غيره من المغاربة بمثل ما فعل هو، ومؤدى ذلك أنه تغنى بالأندلس وليس باسبانيا، لأن هذه الأخيرة لم يكن لها كيان قائم حينئذ... أما نسبه الفارسي فلم ينكره أبدا كما أشير إلى ذلك أعلاه.

مدى تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق

لقد أثار انتباهي عنوان لمقال نشر بمجلة «عالم الفكر» ـــ المعروضة داخل وخارج العالم العربي ـــ ظننت لأول وهلة أنه يفيدني في بحثي هذا بدون شك، مادام يتعلق بموضوع : «تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي»[23]، إلا أنني أصبت بخيبة الأمل لما اطلعت على الموضوع من مقدمته إلى خاتمته، وقد حز في نفسي كثيرا ما عثرت عليه (والذي ما كان يجب نشره ابتداء)... حيث إنه قد يظن المرء بعد ذلك، أن الحضارة الأندلسية خاصة ـــ والمغربية عامة ـــ لا وجود لها، وإنما هي مجرد صورة طبق الأصل لكل ما هو «شرقي» في جميع المجالات العلمية والفكرية بدون استثناء.

وبإلقائنا نظرة خاطفة على ماكتب بالمجلة المذكورة (بهذه المناسبة)، يتأكد قولي، خاصة وأن الباحث يتحدث عن الفكر الأندلسي ابتداء من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وحتى نهاية الحكم العربي لبلاد الأندلس العربية الاسلامية، على حد تعبيره [24].

وهكذا، وبعد ما قام الباحث الكريم باستعراض لأهم المراكز العلمية في المشرق أولا، والكلام عن شهرتها وذيوع صيتها في كافة أرجاء العالم، ثم استعراض نتائجها وعطائها، من أعلام مبرزين ومؤلفاتهم في جميع أصناف المعرفة... انتهى إلى

---

(23) مجلة «عالم الفكر» العدد الثاني، المجلد الثالث عشر : يوليوز غشت 1982، ص 287 إلى 314، أما عن كاتب المقال المشار إلى عنوانه أعلاه، فهو الأستاذ السيد سوادي عبد محمد من كلية التربية بجامعة البصرة.

(24) المرجع السابق : ص 287.

القول بأن الأندلسيين مجرد مقلدين لاخوانهم المشارقة، هكذا بكل بساطة [25] !

والملاحظ أن أهم مرجع اعتمد عليه الباحث في زعمه وادعائه الشخصي ـــ الذي لا يرقى إلى الموضوعية في شيء ولا يستند على أساس البحث العلمي، الذي يتطلب التحري والدقة في إصدار الأحكام ـــ هو رحلة الأندلسيين إلى المشرق العربي من أجل طلب العلم، حتى إذا ما رجعوا إلى بلادهم، ونبغوا في فرع من فروع المعرفة ـــ ولو تفوقوا أحيانا على إخوانهم المشارقة ـــ لم يكن لهم أي فضل فيما وصلوا إليه [26]، لا لشيء، إلا لأنهم درسوا أوتابعوا دراساتهم خارج الغرب الاسلامي [27].

ومن ثم، فهو يرى أن الأندلس قد حققت وحدتها الدينية باتباعها المذهب المالكي لما يمتاز به من مزايا المذهبين الأوزاعي والحنفي [28]. إلا أن المتتبع لتاريخ المذهب المالكي في الغرب الاسلامي، لا يعتبر هذا من قبيل التقليد، بقدر ما هو إبداع وصيانة للشريعة الاسلامية، باتباع مناهجها الصحيحة، والدليل على ذلك أن الغرب الاسلامي هو الذي كان ـــ ومازال ـــ متزعما للمذهب المالكي، بعد وفاة إمام المذهب رضي الله عنه بقليل، بل الأكثر من ذلك، أنه بقدر ما تقلص نفوذ المذهب المالكي بالمشرق العربي، إلا وازداد نفوذه وانتشاره وتعلق الناس به في العبادات والمعاملات، في الغرب الاسلامي [29].

كما يرى الباحث : أن «تأثيرات المشرق كانت واضحة وجلية في بلاد

---

(25) حتى إنه عندما أراد أن يصل إلى نتيجة منطقية، تتمثل في وجود فكر أندلسي متميز، ـــ وبدون شعور ـــ عاد ليعيد الفكرة التي انطلق منها على التوّ، قائلا : «غير أنها (أي الأندلس) دأبت على الاهتمام في أن تصون اللغة العربية، وأن تحفظ التقليد الكلاسيكي الذي جرى عليه المشرق، وخاصة التقاليد في المجالات، الفقهية، والدينية، والعلمية، والأدبية والفنية، والفلسفية، وحرص حكام الأندلس على أن يضعوا دولتهم على منوال الشام والعراق وبلاد فارس...»، وكأن صيانة اللغة العربية قاصر على المشارقة دون غيرهم، وأن قيام الأندلسيين بذلك هو عبارة عن «تقاليد» على حد تعبيره.

(26) ويعلم الباحث بلا ريب أن جزاء المجتهد أجر واحد لو أخطأ، أما لو أصاب فله أجران، استنادا إلى الحديث الشريف.

(27) أي : في المشرق العربي، سواء في الحجاز، أو الشام، أو العراق، أو مصر.

(28) نفس المرجع السابق ص 292.

(29) راجع بحثا في الموضوع لأستاذنا الدكتور عمر الجيدي، بمجلة «دعوة الحق» ص 71 عدد 3، السنة 23 و راجع أيضا كتابه القيم محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الاسلامي» ص 27 منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء (الطبعة الأولى).

الأندلس، فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية وآدابها» [30] بسبب الرحلة إلى المشرق أيضا، كما يرى أن التقليد الأندلسي القديم في جلب الكتب المشرقية الحديثة الصدور إلى الأندلس بقي مستمرا [31]. ويرى أيضا أن «هناك عددا من الشعراء الأندلسيين الذين أفصحوا بالعربية متأثرين بزملائهم المشارقة...» [32] ويرى أن الفن القصصي الشرقي انتقل إلى الأندلس معالجة وموضوعا [33]، وأن مقامات المشارقة تركت أثرا بارزا في مقامات المغاربة... [34].

وإذا وقفنا عند هذا الحد وقفة تأمل، نبادر إلى طرح سؤال على الأستاذ «سوادي عبد محمد» وهو : ألم يكن من الأجدر دراسة الأندلسيين اللغة الاسبانية بدل اللغة العربية، حتى لا يقال عنهم مقلدون للشرق في مجال اللغة ؟! أما من حيث جلب الكتب الشرقية إلى مكاتب الأندلس فهذا عمل لا يسمى تقليدا بقدر ما هو رمز للتحضر وحب المعرفة، وإلا لا كتفت كل جهة من العالم بالاهتمام بدراسة كتب مؤلفيها دون الإطلاع على كتب الغير، حتى إذا ما وجد كتاب لمؤلف أجنبي [35] قيل إن هذه الدولة مقلدة لغيرها في مجال كذا... وهكذا، وهذا لا يحتاج إلى تعليق يذكر.

أما في مجال المقامات فلا ينكر أحد فضل الأندلسيين في تطوير هذا الفن والابداع فيه، وإن كان مأخوذا عن المشارقة.

ويكفي في هذا الصدد ما نقله الباحث الكريم عن المقري، نقلا عن العلامة ابن حزم الأندلسي، ما يلي : «أخبرني تليد الخصي [36] أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسا، وكل فهرس عشرون ورقة [37]، وأقام بنو مروان للعلم والعلماء سوقا نافعة جلبت بضائعه من كل قطر» [38].

(30) مجلة «عالم الفكر» المرجع السابق ص 293.
(31) المرجع السابق ص 294.
(32) المرجع السابق ص 296.
(33) نفس المرجع ونفس الصفحة.
(34) نفس المرجع 297.
(35) والمقصود بكلمة «أجنبي» معناها في الاصطلاح السياسي الراهن، أي : غير المواطن الذي يحمل جنسية دولته، بغض النظر عن القيود الجمركية السائدة اليوم.
(36) الذي كان مقيما (قيما) على خزانة الكتب والعلوم بدار بني مروان.
(37) أي : ما مجموعه 880 ورقة.
(38) نفح الطيب ج 1 ص 362 ط مطبعة السعادة، مصر 1949 ط 1. مجلة عالم الفكر المرجع السابق 300.

ولا يكتفي باحثنا بهذا، بل يضيف مبالغا، قائلا : «أما فيما يتعلق بالفلسفة، فلدينا ما يشير إلى أن تاريخ الفكر الفلسفي في بلاد الأندلس هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الاسلامية المشرقية دون أن تكون له بالتراث المحلي صلة حقيقية يقوم عليها الدليل [39]. ولابد من القول، أن الفلسفة لم تدخل لهذه البلاد كعلم قائم بذاته، وإنما وصلت إليها من المشرق في صحبة العلوم النظرية والتطبيقية... أو أنها ــ كما أفاد بعضهم ــ تسربت إليها في ثنايا الاعتزال وبعض المذاهب الدينية [40]، حتى إذا ما تحدث عن فيلسوف أندلسي مشهور بفكره الثاقب : كمحمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي [41]، وابن حزم الأندلسي، وصاعد بن أحمد عبد الرحمان بن صاعد الطليطلي [42] (ت 462هـ)، وابن باجة (ت 523هـ)، وابن طفيل (ت581هـ) [43]، وابن رشد (ت 595 هـ)... وغيرهم، قال : إن الفضل في كل ما وصل إليه هؤلاء وأمثالهم يرجع، إما إلى النقل عن المشارقة بسبب الرحلة في طلب العلم، وإما عن طريق استلهام أفكارهم التي كانت سباقة إلى الوجود، وكأن الفلاسفة المشرقيين كان ينزل عليهم الوحي الالهي، دون أن يرجعوا، لا إلى فلسفة الاغريق، ولا إلى فلسفة اليونان، ولا إلى الفكر والفلسفة الفارسية، وخاصة بعد ترجمة الكتب اليونانية والفارسية ــ خاصة ــ إلى العربية ــ في عهد أبي جعفر المنصور على وجه الخصوص الذي أمر بذلك شخصيا (وهو الذي بنيت في عهده مدينة بغداد بالعراق).

ومن حيث التاريخ، يلخص الباحث الكريم قوله فيما يلي : «أما نشوء المدرسة التاريخية العربية الأندلسية وتطورها، فيمكن القول باطمئنان، أنها تمت على يد المؤرخين المشارقة [44] بسبب الرحلة إلى المشرق. ليس إلا.

---

(39) نقلا عن بالنثيا في «تاريخ الفكر الأندلسي» المرجع السابق، ص 107.

(40) «عالم الفكر» المرجع السابق ص 303.

(41) خرج من الأندلس فارا بعد أن اتهم بالزندقة، ودخل المشرق واشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة، ثم انصرف إلى الأندلس واظهر نسكا وورعا واتخذ الناس بظاهره فاختلفوا إليه وسمعوا منه، المرجع السابق الهامش رقم 110 ص 303 نقلا عن «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» ج 2 ص 41.

(42) وهو تلميذ لابن حزم الأندلسي.

(43) وهو صاحب كتاب «حي ابن يقظان» ورغم ان الباحث أشاد بهذا الكتاب... لم يجد بدا من القول بأن ابن طفيل قد «تأثر بفلاسفة المشرق الذين تناولوا هذا الموضوع» نفس المرجع السابق، ص 304، بدون أي تحفظ.

(44) المرجع السابق، ص 305.

ونتساءل هنا أيضا : كيف لم ينسُب الباحث العلامة ابن خلدون ـــ الذي يعتبر بحق أول مكتشف لعلم التاريخ (45)، قبل مؤرخي ومفكري أوربا بقرون من الزمن ـــ (وهو ينتمي إلى الغرب الاسلامي، أصله من تونس (أفريقية) وقضى معظم حياته العلمية في المغرب الأقصى)، أقول : كيف لم تتم نسبة اكتشافه إلى المشرق العربي عن طريق النقل؟! ولعل هذا ليس بعزيز على الباحث الكريم، إلا أنه تحاشى ذلك فقط، لكون بحثه خاصا «بتأثر» جهة واحدة فقط من الغرب الاسلامي ـــ وهي الأندلس ـــ بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي... أما لو كان بصدد الكلام عن «أفريقية» أو المغرب الأوسط، أو المغرب الأقصى، لقال بدون تحفظ (كما عودنا في بحثه محل التعليق) بأن كل ما نسب إلى مسلمي الغرب هو لمسلمي الشرق لا محالة.

وخلاصة ما يمكن الرد به على زعم الباحث الكريم، أن «لا إله إلا الله» تُجَرِّدُ كافة البشر من أي امتيازات قد تميز بعضهم عن بعضهم الآخر، أو حقوق قد يختص بها بعضهم دون بعضهم الآخر، مصداقا لقوله تعالى :﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (46)...، حيث كرم الاسلام الانسان لذاته، تطبيقا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (47).

ومعنى الحضارة : «كل ما ينشئه الانسان في كلما يتصل بمختلف جوانبه ونواحيه عقلا وخلقا، مادة وروحا، دنيا ودينا... وهي في تخصصها بجماعة من الجماعات، أو أمة من الأمم، تراث هذه الأمة، أو الجماعة على وجه الخصوص، الذي

---

(45) ذلك أن مفكري أوربا ـــ ومن بينهم كارل ماركس نفسه ـــ كانوا ينتقلون مباشرة في «منهج المؤرخ» إلى «منهج فيلسوف التاريخ» متخطين أهم مرحلة فاصلة بين المرحلتين، في إطار «المنهج التاريخي كقدرة مشاركة» في مجال البحث العلمي، وهي مرحلة «عالم التاريخ»، وهو منهج في الشرح يتجاوز منهج المؤرخ، حيث لا يكتفي بكتابة وسرد الوقائع والأحداث... وإنما يستجوب التاريخ إما مباشرة (إذا عايش الحدث أو الواقعة)، أو اعتمادا على تاريخ المؤرخين (حيث يخضع هذا الأخير إلى «الغربلة» إن صح التعبير). وهكذا لم تعرف أوربا «علم التاريخ» إلا ابتداء من النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بينما عرفه المسلمون منذ عهد ابن خلدون. راجع في هذا الصدد : أستاذنا الدكتور رشدي فكار في مؤلفه : «في المنهجية والحوار» سلسلة إسلاميات ص 23 وما بعدها الطبعة الثالثة 1987 مطبعة أكدال الرباط المغرب. توزيع مكتبة وهبة بالقاهرة ومكتبة المشعل بالرباط.

(46) سورة الحجرات : الاية 13.

(47) سورة الاسراء : الاية 70.

يميزها عن غيرها من الجماعات والأمم» (48).

ومن ثم، فإن كلا من الدين، والفلسفة، والعلم ، والأدب، والفن، والأخلاق، ... هي جزء لا يتجزأ من الحضارة، هذا المصطلح الذي بمقتضاه يمكن التمييز بين الجماعات البشرية في الزمان والمكان، إلا أنه مع ذلك، لا يمكن بحال من الأحوال أن ينسب نتاج حضاري ما (49) إلى جماعة بعينها بطريقة لا تقبل الجدل، لأن أهم ما يميز «الحضارة» هو «النسبية» من حيث البداية والنهاية، لا في الزمان ولا في المكان. فقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (50) معناه أن من طبيعة البشر (عباد الله) أنهم مجتمعيون بطبعهم : يتأثرون ويؤثرون عن طريق اختلاط بعضهم ببعض وأخذ بعضهم عن بعض، في إطار التشريع السماوي الذي يمتاز بالمساواة ونبذ الظلم والطغيان... فكل إنسان متعه الله تعالى بالعقل، الذي عن طريقه يمكنه أن يبدع إذا ما هو أحسن استعمال أدوات المعرفة المتمثلة في : الادراك والوجدان والارادة... وإلا كان غير تقي، فيصبح في حكم الأنعام الذي لا عقل لها بل أضل منها، تطبيقا لقوله تعالى : ﴿ لهم قلوب (51) لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون (52)﴾. وكيف لا، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، خاصة وأن القرآن الكريم بدأ بالدعوة إلى ذلك، قال تعالى : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم (53)﴾.

وبعد هذا، أيمكن الحكم على المجتمع الأندلسي في أرقى مراحله الحضارية الفكرية بالعقم والنقل والتقليد؟! أو لم يتميز بشخصيته الفكري ةالفذة علماء أجلاء في شتى أنواع المعرفة كأمثال : ابن عبد البر رفيق ابن حزم، وهذا الأخير، وأبو الوليد

---

(48) راجع بتفصيل مقالا بعنوان : «التشريع الاسلامي والقيم الحضارية» منشور بمجلة رسالة الجهاد، ص 72 إلى ص 83 العدد 80 شتنبر 1989.

(49) أقول : «حضاري»، وليس فكري فحسب، لأن المفهوم الأول أشمل وأعم من الثاني.

(50) سورة الحجرات الاية 13.

(51) أي : عقول.

(52) سورة الأعراف : من الاية 179.

(53) سورة العلق : من الايات : من 1 إلى 5.

الباجي، وابن رشد والمعتمد بن عباد، وولادة بنت المستكفي، وابن طفيل، والطبيب الجراح أبو القاسم خلف الزهراوي، صاحب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» الذي يعتبر أول مؤلف جعل الجراحة علما قائما بذاته، ومستقلا عن الطب [54].. وغيرهم، والذين يحتاج كل علم منهم إلى مؤلفات؟! ألا يكفي الغرب الاسلامي عامة، والأندلس خاصة، فخرا واعتزازا بمثل هؤلاء، ولم لا يقال لمن رحلوا إلى المشرق طلبا للمزيد من العلم أنهم لم يفعلوا ذلك إلا من أجل السعي إلى التربع على ذورة درجات الكمال، كما قال أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام [55]

بلى، لقد كان عدد كبير من علماء المشرق يرحلون إلى الأندلس، فرارا من طغيان بعض الأعاجم، الذين آل إليهم السلطان، ليجدوا في الأندلس وفي أمرائها وأهلها ملاذا رحبا لقرائحهم الأدبية والعلمية، جنبا إلى جنب مع إخوانهم في الدين هناك من أهل الأندلس، التي منها انتشر نور المعرفة ليمحو قرونا من الجهل الذي كان يخيم على أوربا حيث «لم يضعف العلم ــ بالأندلس ــ بضعف السياسة، ولم يأفل نجم العلماء كما أفل نجم السياسيين» [56].

ولعل خير ما أختتم به هذا الموضوع، ما كتبه الدكتور الطاهر أحمد مكي [57]، بأمانة، قائلا : «... بل أقسم عالم من إشبيلية أن يذهب إلى القاهرة، وأن يجلس في صحن الأزهر وأن يدرِّس «الكتاب» لسيبويه، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشارقة تمكنا من العلم، واستيعابا له». وقال الامام ابن حزم (محل هذه الدراسة) :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب [58]

---

(54) دراسات عن ابن حزم وكتابة طوق الحمامة ص 73.

(55) راجع مقالا لاستاذنا : السعيد بوركبة بمجلة «الاعتصام» تحت عنوان : «عياض : مكانته العلمية» من ص 12 إلى ص 25، العدد 7 السنة 8، وهي مجلة تصدر عن جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية وهذا العدد خاص عن العلامة المغربي : القاضي عياض.

(56) الامام أبو زهرة في مرجعه السابق عن «ابن حزم».

(57) راجع كتابه القيم «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» ص 57، الطبعة الثالثة أكتوبر 1981، دار المعارف، القاهرة.

(58) «مناظرات في أصول الشريعة الاسلامية بين ابن حزم والباجي» للدكتور عبد المجيد تركي ص 17، ترجمة وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الصبور شاهين، الطبعة الأول 1986 : دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان.

وما كتبه الباحث بيريز في تمهيده لرسالته عن الشعر الأندلسي بالفصحى في القرن الحادي عشر الميلادي من أن «الشعر لم يزدهر في أي فترة أخرى بمثل هذه الغزارة»، و«أنه إذا كانت هنالك قسمات مشتركة بين هذا الشعر ونظيره في المشرق، أو حتى في إسبانيا في القرون السابقة، فإنه يتميز بسمات أصلية كثيرة أيضا لا يمكن أن تعزى إلا إلى الظروف التاريخية الخاصة التي عرف بها القرن الحادي عشر» (59) ثم يضيف، متحدثا عن ملوك الطوائف وشغفهم بالعلم عامة، قائلا عنهم : «أولئك الذين كانوا جميعا يحرصون على الدعوة لأنفسهم، فبدأ الالهام المحلي يتخذ مكانته الغالبة» (60).

(59) المرجع والصفحة نفسهما.
(60) المرجع والصفحة نفسهما.